سياسة المنصور سيف الدين قلاوون تجاه القوى الصليبية في بلاد الشام

دريد عبد القادر نوري
قسم التاريخ / كلية الآداب

تقديم

نتيجة للغزو الصليبي لبلاد الشام، ظهر حكام مسلمون تمكنوا — بما يتمتعون به من مقدرة وكفاءة — ان يحتلوا مركز القيادة لمنطقة الشام او لبعض مدنه وان يتزعموا الجبهة الموحدة التي يكونونها مما يمكنهم توحيده من بلاد مصر والشام وبلاد الجزيرة ، نظرا لضعف السلطة المركزية في بغداد من ناحية وامكانية اولئك الزعماء في اكتشاف امنيات امتهم في الوحدة والتحرير من ناحية ثانية. ولذلك فلم يكن من الغريب ان يصل إلى القيادة من سائر المماليك من يستطيع اكتشاف اهداف شعبه ويعمل على تحقيقها .

وماسيف الدين قلاوون الا واحد من اولئك الزعماء الذين تطلعوا بعمق إلى اهداف امتهم في التصدي للصليبيين وتحرير بلاد الشام من سيطرتهم وعمل على تحقيقها كما حققها من قبله نور الدين محمود زنكي (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) وصلاح الدين الايوبي (٥٨٩هـ / ١١٩٣م) اللذين نالا بفضل تصديهم للصليبيين اعجاب الامة الاسلامية .

ولما كانت محاربة الصليبيين لاتتأتى بالعمل البطولي الارتجالي وحده ، بل بالوحدة وببناء الجبهة الداخلية اولا ، وباعداد العدة ثانيا . لذلك فقد شمل موضوع البحث فقرتين ، كانت الاولى في ماهية السياسة التي اتبعها قلاوون في سبيل بناء الجبهة الداخلية ، على حين شملت الفقرة الثانية موقفه من الصليبيين والخطوات التي اتبعها في وقف هجماتهم على بلاد الشام وخططه العسكرية والدبلوماسية في صد ذلك الهجوم .

وقد عمدت إلى بحث هذا الموضوع نظرا لان ماوجدته في المكتبه العربية من بحوث في هذا الباب لم يف بالغرض المطلوب خاصة وان البحث في موضوع الحروب الصليبية يعتبر من المواضيع الهامة ، لان الامة العربية اليوم لاتزال تغزى من الغرب الاستعماري ، كما كانت تغزى من قبل الغرب الصليبي . ولذلك فدراسة اسباب الغزوات التي واجهتها امتنا سابقاً والاطلاع على مواقفهم

وحلولهم لها ، ربما يفيد في القاء الضوء على مشاكلنا المعاصرة ويدفع بنا إلى التعرف على العوامل التي مكنت اولئك القادة ومنهم سيف الدين قلاوون من الانتصار على اولئك الغزاة الذين كانوا يستهدفون القضاء على الوجود الاسلامي في منطقة الشام ، لان من اهم نتائج دراستنا للتاريخ ، كسب العبرة والافادة منها في تصحيح خطوات الحاضر.

ظهرت فكرة الاستعانة بالمماليك منذ عهد الخليفة العباسي المأمون ثم استعان بهم المعتصم بشكل اكثر اذ جلب فرقا كبيرة من التركمان لتدعيم سلطانه . ولما تأسست الدولة الاخشيدية في مصر جعل محمد بن طغج جيشه من الاتراك ومن الديلم ، ولما آلت السلطة الى الايوبيين أكثروا من شراء المماليك الترك حتى اصبحوا اعدادا كبيرة داخل مصر وكانت لهم مميزاتهم الخاصة وارستقراطيتهم المتميزة في المجتمع.

وقد انتقلت اليهم السلطة بعد وفاة نجم الدين الايوبي حيث جاءتهم ظروف مواتية سيطروا من خلالها على مقاليد الحكم في مصر بعد سنة ٦٥٠هـ /١٢٥٢م . وكان من اولئك الامراء المماليك الظاهر بيبرس (١) مؤسس دولة المماليك البحرية — والسلطان قلاوون ، موضوع البحث ، وقد تمكن اولئك المماليك من القيام بدورهم التاريخي في صد الهجوم المغولي على بلاد الشام ، كما تصدوا بحزم للصليبيين.

امتازت حروب السلطان بيبرس مع الصليبيين بعنفها وطولها كما امتازت برجحان كفته وانتصاره المستمر ، فلم تنقض سنة من السنوات العشر الواقعة بين ٦٥٩ — ٦٦٩هـ / ١٢٦١ — ١٢٧١م دون ان يوجه بيبرس حملة صغيرة او كبيرة ضد الصليبيين بالشام . فقد هاجم عكا واستولى على يافا

---

(١) الظاهر بيبرس : هو السلطان ركن الدين البندقداري الصالحي ، قفجاقي الجنس . كان رجلا مملوكاً قوياً من مماليك نجم الدين ايوب في مصر . وقد تقلبت به الاحوال إلى ان صار سلطان الشام ومصر ما بين سنتين (٦٥٨— ٦٧٦هـ / ١٢٦٠— ١٢٧٧م) لما كان يتمتع به من مقدرة وصلاح. انظر: تاريخ ابن الفرات : ٨١/٧—٨٦ .

وقيسارية وارسوف والرملة وصفد ومدينة انطاكية(٢).

وقد سار على سياسة الظاهر بيبرس السلطان المنصور سيف الدين قلاوون بن عبدالله التركي(٣) الذي يعتبر السابع من ملوك المماليك الذين حكموا مصر وبلاد الشام «لما قام به من فتوح واعمال جليلة لانه رأس أسرة قلاوون التي تتابع على عرش مصر منها أربعة عشر ملكا وحكمو ماوحدهم قرابة مائة عام .» (٤) .

وقد جاءت قلاوون هذا ظروف مواتية جعلته يحتل مركز القيادة في حكم اسرة الظاهر بيبرس ، نظرا لشجاعته ومساندته الفعلية للظاهر بيبرس ، وقد ال الامراليه فعلا سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م بعد وفاة السلطان بيبرس الذي لم يخلف من بعده الاولدا في الثامنة عشرة من عمره اسمه السعيد ناصر الدين محمد بركة خان ومن دون ان يعين له اتابكا(٥)فاضطربت الاحوال السياسية في البلاد واخذ الحاكم الصبي في ملاحقة كبار الامراء والتضييق عليهم ، ومنهم قلاوون مما دفع الى الاجماع على عزلة فتقدموا في اوائل شهر ربيع الاول سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م الى قلعة الجبل التي كان فيها

---

(٢) انظر بخصوص حروب الظاهر بيبرس مع الصليبيين: تاريخ ابن الفرات: ٨٣/٧-٨٦ . سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر والشام في عصر المماليك : ص ١٨٠-١٨٣، احمد مختار العبادي قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام : ص ٢٢١-٢٢٩.

(٣) ينتمي السلطان قلاوون إلى قبيلة برج اغلي الساكنة بحوض نهر الفولكا، فهو تركي الاصل ولمعرفة المزيد عن اصله ومولده وموطنه وبعض اعماله انظر : المقريزي السلوك لمعرفة دول الملوك : ق٣ ج١/٦٦٣ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات /٩٤/٧-٩٥ ابن اياس بدائع الزهور: ١١٤/١ ، محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات: ٢٠٣/٣-٢٠٤ .

(٤) محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك: ٢٩.

(٥) تعني كلمة (اتابك) في اللغة التركية المنصب الذي يطلق على مربي الامراء والملوك الصغار والكلمة تتألف من لفظين هما: (اتا بمعنى اب و(بك) بمعنى امير او سيد. واول من لقب بهذا اللقب هو الوزير نظام الملك من قبل السلطان السلجوقي ملكشاه سنة ٤٦٥هـ.انظر : القلقشندي، صبح الاعشى: ١٨/٤ ،

Ency. of Islam, vol, 1, Art, Atabak p. p. 731 — 732.

مقر الحكم وحاصروها وانتهى الامر بخلع الامير الصغير نفسه عن الحكم(٦) والتعويض له عنها بحكم حصن الكرك (٧) .

وبعد خلع السلطان سعيد انتخب السلطان قلاوون اتابكا للملك سلامش بن الظاهر بيبرس الذي كان صبيا ايضا في السابعة من عمره وعلى اثرها انتقلت السلطة الفعلية للسلطان قلاوون واصبح هو الوحيد المتصرف في السلطنة(٨) ومن ثم اخذ يعمل جاهداً في تثبيت حكمه والقبض على مقاليد الامور عن طريق تعيين الموالين له في المراكز الحساسة من البلاد. ومن جهة ثانية فقد القي القبض على القادة والامراء الموالين للسلطان (ناصر الدين) والعادل (سلامش) واودعهم السجن من دون الاعتداء عليهم والسيطرة على اموالهم بقصد تخويفهم واجبارهم على تقديم فروض الطاعة له.(٩)

وهكذا نجح قلاوون بتلك السياسة السلمية في السيطرة على مقاليد الامور واوضح للجميع من الامراء والقادة ان لافائدة من بقاء ذلك الصبي ملكا عليهم . وان الرأى في عزله وانتخاب قلاوون بدلا منه (١٠) وبذلك تم له ماراد وعزل سلامش من السلطة في رجب من سنة ٦٧٨هـ وبذلك انتهى حكم اسرة الظاهر بيبرس البند قد ارى وظهرت اسرة قلاوون التي كونت العمود الفقري لدولة المماليك البحرية .

ففي مجال السياسة الداخلية عمد إلى القضاء على تمردات العشائر وقطاع الطرق امثال جاموس والمحوجب اللذين كانا يعيثان في ارض مصر فسادا

(٦) لمعرفة المزيد عن ظروف العزل وسياسة الصغير انظر : ابن اياس بدائع الزهور: ١/١١٤ ، المقريزي، السلوك: ق٣ج١/٦٥٤ .

(٧) الكرك: حصن منيع يقع إلى الجنوب الغربي من طبرية، استولى عليه الصليبيون بعد مجيئهم إلى الشام بعد سنة ٤٩١هـ وبقي بايديهم يشنون منه الغارات على المواقع الاسلامية المجاورة ويقطعون بواسطته الطريق التجاري بين مصر والشام إلى ان فتحه صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٤ وانتقل بعده إلى سلطة المماليك. انظر: ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة : ق٣ج٢/٦٩-٧٣ .

(٨) السيوطي، تاريخ الخلفاء: ٢٣٢.

(٩) انظر: ابن خلدون، تاريخ العبر: ق٤ج٥/٨٥٠ .

(١٠) ابن اياس، بدائع الزهور: ١/١١٤ .

بالسلب مرة اخرى بالقتل حيث قبض عليهم وامر بقتلهما (١١) وفي شوال من سنة ٦٧٨ هـ امر بطرد كتاب الجيوش من النصارى وامر استخدام الكتاب من المسلمين عوضا عنهم . فقد عين مثلا القاضي امين الدين (شاهد صندوق النفقات) كاتبا في ديوان الجيش بدلا من الاسعد ابراهيم النصراني(١٢) وفي هذه الاجراءات مايدل على رغبته في ضبط الشؤون العسكرية ومنع تسرب المعلومات العسكرية للجانب الصليبي .

ولما كان الجيش هو الدعامة الاولى التي يستطيع بها تحقيق اهدافه القاضية بضرب الصيبيين وارجاع ماكانوا قد استولوا عليه من بلاد المسلمين في الشام لذلك اولاه قلاوون عناية كثيرة وعمد لتقويته والاكثار من شراء المماليك (١٤) الذين اخذ يعدهم اعدادا حسنا بتربيتهم والاشراف على شؤونهم الخاصة حتى قدر عدد مماليكه باثنتي عشر الف مملوك اختار منهم ثلاثة الاف واسكنهم ابراج القلعة وعرفوا فيما بعد باسم المماليك البرجية (١٥) .

والحقيقة ان اولئك المماليك كانوا قد قاموا بدورمهم في عملية بناء الجيش الملوكي انذاك والوقوف بوجه الخطر المغولي والصليبي الذي كان يهدد منطقة الشام نظرا لحسن تدريبهم وتربيتهم اذ كان جيشا مدربا على فنون القتال المختلفة التي كان يشرف عليها قلاوون بنفسه بالاضافة إلى التربية الدينية المعروفة في ذلك الوقت (١٦).

وبعد ان وثق قلاوون من مقدرته توجه صوب توحيد القوى والطاقات وكان اول عمل بدأ به هو التخلص من منافسيه الذين كانوا يسعون للوصول إلى السلطة داخل مصر وعمل على ابعادهم إلى خارج البلاد ليتسنى له الانفراد

(١١) انظر ابن الفرات ، التاريخ : ١٩٢/٧.
(١٢) نفس المصدر السابق: ٧ / ١٩٣.
(١٤) راجع بخصوص الجيش المملوكي في عهد قلاوون السيد الباز العريني، المماليك: ٥٣-٨٣ .
(١٥) انظر: ابن اياس ، بدائع الزهور: ١ / ١٢٠ ،حسن ابراهيم حسن : دراسات في تاريخ المماليك البحرية: ٤٧.
(١٦) انظر: حكيم امين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية: ١٣

بالحكم وبالتالي التفرغ للسياسة الخارجية . وكان من اهم الامراء المشكوك في امرهم (سنقر الاشقر) فقد ابعده قلاوون إلى مدينة دمشق بعيدا عن مصر ليكون نائباً عنه فيها غير انه استغل وجوده في دمشق وعمل على الاستقلال بحكمها واخذ يستقطب الاتباع حوله حتى تمكن من مد سلطانه إلى بعض المدن والقلاع الشامية (١٧).

والحقيقة ان قلاوون كان مخطئا في سياسته السابقة فقد كان عليه ان يحاصر الامراء الذين يشك في نواياهم تجاه الدولة ويعمل على تجريدهم من مناصبهم لا أن يمنحهم امارة مدن بعيدة عن مركز الحكم .

وهكذا تحتم على قلاوون مقارعة الاشقر والتخطيط للقضاء عليه واعادة حكم بلاد الشام تابعاً لمصر فبعث اليه جيشا مصريا كبيرا فيه عدد من المماليك الاشداء بقيادة عز الدين ايبك وما ان وصل الجيش إلى مشارف غزة سنة ٦٧٨هـ حتى حدثت عدة معارك كان نتيجتها اندحار الاشقر وهروبه نحو مشارف دمشق وهناك عمل على استجماع قواته من جديد وتقدم لخوض المعركة الجديدة التي عرفت باسم (الجسورة) والتي انتهت في ١٩ صفر سنة ٦٧٩هـ بهزيمته من جديد وانضمام عدد كبير من جنده إلى الامير عز الدين ايبك الذي تعقب فلول المنهزمين ودخل دمشق (مركز حكم الاشقر) منتصراً (١٨) .

ولما كان قلاوون ينوي في حروبه ضد الامراء المماليك المناوئين له اجبارهم على الدخول في الوحدة لتتوحد الطاقات لذلك فان سياسته اقتضت الوقوف امام جمهور الامه موقفاً ايجابياً، يختلف عن موقفه الذي يقفه امام الامراء الذين كانوا يقفون بوجه محاولات توحيد الامة لذلك اصدر اوامره بالعفو العام عن اهالي دمشق كما امر باكرام الاسرى واطلاق سراحهم (١٩).

والحقيقة ان سنقر الاشقر كان قوياً وله كثير من الاتباع في الشام لذلك

---

(١٧) ابن الفرات، التاريخ: ١٦٣/٧.

(١٨) راجع بخصوص موقف قلاوون من الاشقر وهزيمة الامير العام القوات المصرية المصادر التالية: ابن الفرات: ٦٣/٧، ١٦٩، الذهبي، تاريخ الاسلام: ٣٢/٩.

(١٩) انظر تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق (بيروت : ١٩٤٣) : ١٧٠/٧--١٧١ .

فان قوته لم تنته رغم ماحصل من نتائج في معركة الجسورة فقد تمكن من اعادة سلطانه على حصن صهيون وشيزر (٢٠) وبكاس(٢١) وهدد الوحدة التي كادت ان تقام بين مصر ومعظم بلاد الشام بالفشل، لذلك خطط قلاوون للقضاء عليهم نهائياً، غير ان تقدم المغول نحو الشام دفع بكلا الطرفين إلى التهادن والاتفاق على مقارعة الخطر الخارجي وقد تمكنا فعلا من الانتصار على التتار قرب مدينة حمص ومنعوا تقدمهم نحو داخل بلاد الشام ثم انتهت المعارك مع التتار وعاد الاشقر إلى حصونه من دون ان يحصل على موافقة قلاوون (٢٢).

ولما كان هدف قلاوون توحيد بلاد الشام ومصر تحت سلطانه، لذلك فانه في كل الاحوال لم يرض باستقلال الاشقر ببعض الحصون في بلاد الشام وكان عليه ان يحقق الهدف ولو بالقوة فتقدم بقواته نحو الحصون التي كانت تابعة للاشقر واخذ يفتحها ويجبرها على الدخول في الوحدة واحدة بعد الاخرى فقد استرجع حصن بلاطنس (٢٣) ،في صفر سنة ٦٨٤ هـ ، كما استرجع المرقب وبرزية والشغر وبكاس في ربيع الاول من نفس السنة ، ثم انتهت العلاقات السلبية مع الاشقر بفتح حصن صهيون واستسلام الاشقر في ٢٢ صفر سنة ٦٨٦ هـ واعادته إلى القاهرة مكرما . (٢٤)

وبعد الانتهاء من فتح ماكان بيد الاشقر من المدن توجه للسيطرة على املاك اولاد السلطان بيبرس في منطقة الشام فاسترجع حصن الشوبك (٢٥) في ١٨

(٢٠) شيزر: قلعة بالشام قرب المعرة، بينهما وبين مدينة حماة يوم يجري من وسطها نهر الاردن وهي تابعة لمدينة حمص وقد افتتحها صلحاً ابو عبيدة بن الجراح سنة ١٧هـ ويقترن اسمها بين منقذ الكنانيين. (ياقوت الحموي، معجم البلدان(بيروت: ١٩٥٧): ٣٨٣-٣٨٤.

(٢١) بكاس: قلعة من نواحي حلب على شاطئ العاصي(ياقوت الحموي، معجم البلدان: ١/ ٤٧٤).

(٢٢) انظر: تاريخ ابن الفرات: ٧ /١٨٦-١٩٠.

(٢٣) بلاطنس: حصن منيع بسواحل الشام مقابل اللاذقية كانت تابعة لمدينة حلب : ياقوت الحموي معجم البلدان : ١ /٤٧٨.

(٢٤) انظر: ابن الفرات: التاريخ: ٨/٤٩/٥٠، ابن اياس بدائع الزهور: ١/١١٧.

(٢٥) المقريزي السلوك: ج١ق٣/ ٦٦٦.

ذى الحجة من سنة ٦٧٨ هـ كما استرجع الصلت في نفس العام ايضا (٢٦) وفي سنة ٦٨٠هـ تمكن قلاوون من ضم بلاد تونس إلى حكمه وفي سنة ٦٨٥هـ ضايق حصن الكرك(٢٧) كثيرا الذي كان بيد مسعود الظاهر بيبرس حتى تمكن من استرجاعه(٢٨)

وهكذا تمت الوحدة بين مصر ومعظم بلاد الشام وثبت مركز سيف الدين قلاوون واصبح بفضلها سلطانا لاينافسه احد من الامراء المسلمين القيادة البتة في كل من الشام ومصر وبلاد الجزيرة والحجاز كما اصبح اعداؤه من الصليبيين – بفضل تلك الوحدة – تحت قبضة يده محاصرين من الشمال والشرق ومن الجنوب وقد اصبحت تلك المناطق جميعاً بعد ان سادها الاستقرار بين مختلف عناصرها مادة لجيوش قلاوون وكان من نتائج تلك الوحدة ان هزم الصليبيون امام قلاوون في عده معارك واستعيدت كل من مدينتي عكا وطرابلس كما سيتبين ذلك في الصفحات القادمة .

ولم يبق لقلاوون بعد اتمام سيطرته على معظم بلاد الشام ومصر الا كسب المسلمين في منطقة الحجاز فعمد إلى اصلاح موقفه من امرائهم والزيادة في أعطياتهم التي بلغت عشرين الف درهم سنوياً مع تقديم الكسوة السنوية للكعبة مما دفع بشريف مكة إلى الاعتراف به والخطبة باسمه والحلف له على ذلك بقسم غليظ (٢٩).

اما بلاد النوبة واليمن فان السلطان قلاوون تمكن من كسب جانب اهلهما عن طريق اخذ الولاء له والموافقة على بقاء البلاد تابعة لحكامها الاصليين بعد ان اتفق الطرفان على استمرار العلاقات طيبة وسليمة (٣٠) وذلك وفقاً للمخاطر التي يتعرض لها حكمه في حالة قيام الاضطرابات هناك .

(٢٦) ابن الفرات، التاريخ: ١٦١/٧ .
(٢٧) الكرك: انظر هامش رقم(٧) صفحة رقم (٤٦) .
(٢٨) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب: ٣٩٠/٥.
(٢٩) انظر القسم الذي حلف به شريف مكة وعلاقته بقلاوون: تاريخ ابن الفرات: ٢٤٧/٧.
(٣٠) لمعرفة المزيد عن العلاقات بين قلاوون وامراء اليمن انظر: المقريزي: السلوك: جـ١ق/٩٥ ٧٠٢،٦٢١ اما عن العلاقات بين قلاوون وبلاد النوبة انظر: السلوك: جـ١ق٣-/٧٤٣- ٧٤٩ ابن الفرات: ٩٢/٨ .

بعد ان سيطر قلاوون على الاوضاع الداخلية وقضى على منافسيه تقدم لمحاربة الصليبين بعد ان امن خطوط رجعته وكسب ثقة المسلمين به وكان اول عمل بدا به هو ارسال الوحدات العسكرية المنظمة لحفظ الساحل الشامي من غدر الهجمات الصليبية التي اخذت تتحول في تلك الظروف مستغلة الوضع الداخلي المتأزم في بلاد الشام (٣١) . لان الصليبيين لم يتمكنوا من اقامة اماراتهم والاستمرار في حكمها الا لضعف المسلمين وتفرقهم في منطقة الشام والجزيرة ومصر مع وجود تناقضات بين مصالح اولئك الامراء . وكمثال على ذلك فقد استغل جماعة الاسبتارية(٣٢) سنة ٦٧٩ هـ فرصة اغارة المغول على حلب وحاولوا الاستيلاء على حصن الاكراد (٣٣) ونكلوا باهله (٣٤) الا أن تلك الاحوال لم تدم بفضل يقظة العالم الاسلامي انذاك وما تمخضت عنه المنطقة من ظهور قادة مخلصين اكفاء تمكنوا من استغلال الظروف السياسية التي كانت تسود المنطقة وتمكنوا من الاطاحة باعمال الصليبيين العدوانية في منطقة الشام .

ويكفي ان اقول ان ظهور مثل اولئك القادة كان طبيعياً استجابة للتحدى الذي اصاب المشرق الاسلامي بفعل الغزو الصليبي حتى إنه كان من المألوف

---

(٣١) انظر المقريزي: السلوك ٦٨٣/٤.

(٣٢) الاسبتارية : الكلمة تحريف ظاهر للفظ الافرنجي Hospitallers وتطلق على احدى جمعيات الاخوان الرهبانيين التي شكلت في عهد الحروب الصليبية بالشرق وهي معروفة كذلك باسم فرسان القديس يوحنا وقد خرجت من الشام مع الصليبيين بعد سقوط عكا سنة ١٢٩١م واستقرت بجزيرة رودس بعد ان كانت قد اقسمت القيام بالحرب المقدسة ضد المسلمين مهما بلغت التضحيات ولمعرفة المزيد عن هذه الطائفة انظر :

King (E.J.) The Knights Hospitallers P.P.I – 33

توفيق اليوزبكي تجارة مصر في العصر المماليكي هامش رقم (٦) صفحة رقم(٢٨)

هربرت فيشر تاريخ اوربا في العصور الوسطى، ص ٤٤٤.

(٣٣) حصن الاكراد: حصن منيع على جبل مقابل مدينة حمص من جهة الغرب وكان قد سكنه الاكراد ليكون طليعة بوجه الغزو الصليبي ولهذا سمي باسمهم(ياقوت الحموي معجم البلدان: ٢٦٤/٢).

ان يصل إلى القيادة والامارة رجال من المماليك ممن فهموا روح العصر الذي يعيشون فيه ومبادئه السائدة وافادوا منها وما سيف الدين قلاوون الا دليل على صحة ذلك الافتراض .

وقد سار سيف الدين قلاوون على سياسة صلاح الدين الايوبي والظاهر بيبرس في اخراج الصليبيين من بلاد الشام واستولى على مابقي في ايديهم سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٩م عدا مدينة عكا التي استولى عليها من بعده ابنه السلطان خليل سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٢م . وقد كان قوياً بحيث فتح الكثير من القلاع التي لم يتمكن صلاح الدين من فتحها لحصانتها وكثرة الامدادات الصليبية التي كانت تصلها من الغرب كمدينة طرابلس وحصن المرقب (٣٥) .

وكانت سياسة قلاوون تجاه الصليبيين في فترة الاعداد لبناء الجبهة الداخلية تتمثل بالموافقة على عقد مهادنات موقتة مع الصليبيين نظرا للانشغال بصد الهجوم المغولي و التفرغ للقضاء على منافسيه من الامراء المسلمين ومن جهة ثانية فان قلاوون نصد من تلك المهادنات «فصل الصليبيين بالشام عن المغول في العراق وفارس »(٣٦) .

وقد وقع اول تقرير للهدنة بين الاسبتارية بطرابلس وقلاوون وحلف عليه سنة ٦٨٠هـ — ١٢٨١م «لمدة عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة ايام وعشر ساعات اولها يوم السبت ثاني عشرى المحرم ... وتقررت [الهدنة ايضا] مع تملك طرابلس والشام ... لمدة عشر سنين » (٣٧) وكان جوهر الاتفاقيه ينص على الشروط التالية :

(١) يقيم نواب السلطان قلاوون وصاحب طرابلس الصليبي بمدينة اللاذقية

---

(٣٤) انظر: The Knights Hospitallers – P . 282

(٣٥) انظر علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية: ٥٨، ٥٩.

(٣٦) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية: ١١٦٦/٢.

(٣٧) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ق٣، ج١/٦٨٥، انظر تاريخ ابن الفرات: ٢٠٨/٧.

(٣٨) انظر: تاريخ ابن الفرات: ٢٠٥/٧–٢٠٦ محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوغ ن ٢٣٣.

للاشراف على استخراج الجبايات وتقسيمها مناصفة .

(٢) على الطرفين المتهادنين الا يبنيا او ينشئا قلعة او مدينة تجاور البلاد خارج مناطقهما .

(٣) لايجوز نقض الهدنه بوفاة احد الطرفين او بانتقال الحكم إلى غيره(٣٨)

و الحقيقة ان قلاوون كان مضطرا لعقد مثل تلك المهادنات لانه كان واقعاً تحت تاثير الخوف من الهجوم المغولي ومن احتمال استغلال الصليبيين لتلك الظروف والهجوم على المسلمين (٣٩) كما كان منهمكاً في القضاء على المشاكل الداخلية فاراد ان يموه على الصليبيين بمثل تلك الاتفاقيات .ولكي يبرهن على ظاهر صدقة ويمرر طريقته عليهم عمد إلى الموافقة على قبول مهادنات ذات امد طويل يستغل بعض وقتها للاعداد لهم ، والهجوم عليهم بعدما يرى منهم ايه محاولة ولو كانت غير جادةفي نقض شروط الهدنه .

وفعلا بعد اربع سنوات هاجم حصن المرقب العائد للطائفة الاسبتارية سنة ٦٨٤هـ ١٢٨٥ م وتمكن من فتحه بعد ان امن مخاوف المغول وراى من الاسبتارية مايهدد قوافل التجار المسلمين (٤٠) وكان حصن المرقب هذا من أعظم الحصون الصليبية خطورة عليه نظرا لمناعته وحصانته (٤١) ومن ناحية ثانية فان الصليبيين ايضا قبلوا تلك المهادنة للمشاكل الداخلية التي كانوا يعانون منها ، وتمثل بعض المدن الصليبية في اوربا عنهم (٤٢) نظرا لان قلاوون حافظ على العلاقات

---

(٣٩) من الادلة التي تثبت ان الصليبيين كانوا يستغلون الفرص في الهجوم على المسلمين في الاوقات الحرجة ماذكره ابن الفرات انه سنة ٦٧٩هـ كتب امير الشام إلى قلاوون يستأذنه في غزو الصليبيين بالمرقب لانهم لما بلغهم قدوم المغول قويت نفوسهم وامتد طمعهم فاذن السلطان قلاوون في ذلك.(تاريخ ابن الفرات: ١٩٥/٧).

(٤٠) Lane Pool,AHistory of Egypt in the middle ages ,P. 281
stevenson ,The Crusader in East ,P.349

(٤١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة: ٣١٧/٧.

(٤٢) انظر: عاشور، الحركة الصليبية: ١١٦٨/٢.

الودية التي احكم اواصرها السلطان بيبرس مع امبراطور القسطنطنية كما ابرم معاهدة دفاعية بينه وبين جيمس ملك صقليا والفونسو صاحب قشتالة مما اضعف قوى الصليبيين في الشرق وجعلهم يخسرون بعض حلفائهم (٤٣) .

ويتبين من دراسة الفترة الاولى لعلاقة قلاوون بالصليبيين ان سياسته تجاههم كانت مقتصرة على غارات خاطفة ومركزة على بعض المعاقل والحصون الصليبية المهمة و الموافقة على عقد مهادنات مؤقتة لغرض التفرغ الكامل لبناء الجبهة الداخلية ، كما تبين من قبل ، وبعد ان حقق هدفه السابق تقدم لتصفية حسابه الكامل مع الصليبيين فاسقط طرابلس معقل تجمعهم الاول . وقبل التطرق إلى شرح تلك الخطوات اشير إلى مسألتين هامتين اولاهما : ان قلاوون ماكان له ان يحقق اهدافه لولا نجاح سياسته في تثبيت الجبهة الداخلية والسيطرة على معظم بلاد الشام والجزيرة . وثانيهما : ان قلاوون لم يتمكن من انجاح سياسته تجاه الصليبيين لولا ان خدمته بعض الظروف المواتية التي تمثلت بمساندة امراء المسلمين له واضطراب احوال الصليبيين الداخلية من جهة ثانية .

الا أنه يجب الا نبالغ كثيراً في تعظيم مساندة الامراء المسلمين له ولا في التفكك الداخلي والاضطراب الذي ساد بين الصليبيين في منطقة الشام لان ذلك يخالف الوقائع التاريخية ويخدم وجهة النظر الصليبية من ناحيتين اولاهما : انه يبرر خسارة الصليبيين امام قلاوون . وثانيهما انه يقلل من اهمية تلك الانتصارات .

وكثيرا ماذكرت بعض المصادر الغربية والعربية المقلدة لها وصفاً لايخلو من مبالغة كبيرة في تبيان مدى الضعف الذي كانت عليه الامارات الصليبية قبل ان يغزوها قلاوون وكمثال على ذلك جاء في احدى المراجع مايلي :ـ « لعل الغريب في قصة الدور الاخير من ادوار المعركة الصليبية بالشام هو أن الصليبيين ظلوا حتى اللحظة الاخيرة لايشعرون بالخطر الذي يهددهم جانب المماليك فاستمروا غارقين في منازعاتهم الداخلية ... وفي ذلك الوقت

٤٣) انظر : توفيق اليوزبكي ، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي : ٥٧ .

نشبت الحرب في ايطاليا بين بيزا وجنوا فامتدت بعد قليل إلى بلاد الشام...» (٤٤)

وفي النص السابق مبالغة واضحة في تبيان الضعف الذي كان عليه الصليبيون في الشام ويتبين منه وكأن الصليبيين كانوا غافلين عن الحرب ضد المسلمين فهجم عليهم قلاوون بقواته وانتصر عليهم وبذلك فان انتصاره عليهم لم يكن له اهمية تاريخية لان الظرف الثاني لم يكن مستعدا للحرب .

ولو تفحصنا المصادر العربية لوجدنا مايدل على ان الصليبيين كانوا مستعدين للحرب وانه كانت تصلهم امدادات قوية من الصليبيين في اوربا يقول المقريزي : « في اول ربيع الاخر [من سنة ٦٨٣ هـ] ورد الخبر بحركة الفرنج لاخذ الشام [دمشق] فتجهز السلطان للسفر ... » (٤٥) اى ان الصليبيين كانوا هم البادئون في التحرك ضد المسلمين . وفي سنة ٦٨٧ هـ ١٢٨٨ نقض الصليبيون في طرابلس الهدنة واسروا جماعة من التجار وغيرهم (٤٦) مما يدل على شعورهم بقوتهم العسكرية وتخطيطهم للهجوم على المسلمين وفي سنة ٦٨٨هـ ١٢٨٩ م قدمت مساعدات من الصليبيين في اوربا إلى مدينة طرابلس قبل فتحها وهي اربع شوان (٤٧) محملة بالعدد والعدة لتقوية الحامية الصليبية في المدينة (٤٨) كل هذه الادلة تثبت قوة الصليبيين في منطقة الشام، وامكانياتهم العسكرية وقدرتهم على التحرك ضد المسلمين .

على اية حال فان الهدنة بين الصليبيين في طرابلس والسلطان قلاوون وقعت تحت تأثير مصلحة الطرفين المتبادلة غير ان بعض الامراء من المماليك

---

(٤٤) انظر : عاشور، الحركة الصليبية : ١١٦٩/٢.

(٤٥) السلوك لمعرفة دول الملوك: ق٣ج١/٧٢٢.

(٤٦) نفس المصدر السابق: ٧٤٦/١.

(٤٧) الشيني او الشواني او الشوانه : وهي السفن الحربية الكبيرة وتعتبر من اهم القطع العسكرية البحرية وهي من اصل مصري وكانت تسير بمائة واربعين مجدافاً وتقدر حمولتها بمائة وخمسين جندياً وكان يقام فيها الابراج والقلاع كما كانت ترمي منها النار على العدو . انظر : ابن شداد، النوادر السلطانية : ص٤٨ هامش رقم(٤) ابن واصل مفرج الكروب: ١٣/٢ هامش رقم (١)

(٤٨) نفس المصدر السابق: ٦٨٦/١.

رفضوا الصلح مع الصليبين واعتبروا السلطان خائناً يجب قتله وبالتالي نقض الهدنة مع الصليبيين. ففي سنة ٦٨٠هـ علم السلطان ان جماعة من امرائه قد اتفقوا مع الامير سيف الدين كوندك الظاهر السعيدي على قتله « وكاتبوا الفرنج بانهم لايصالحون» (٤٩)

وقد تمكن قلاوون من السيطرة على الموقف وقتل مناوئيه بعد ان بين لعامة الناس حسن نواياه فقد تلطف في الامر وتحفظ على نفسه حتى اجتمع الامراء عنده« فوبخ كوندك ومن معه وذكر لهم مااعتمدوه من مكاتبة الفرنج فلم ينكروا وسألوا العفو فامر السلطان بهم فقبض عليهم وهم كوندك وايدغمش ... مع ثلاث وثلاثين من الامراء ... وفر عشرة امراء ومائتا فارس...» (٥٠)

وقد انتهت المؤامرة التي احيكت ضد قلاوون بالفشل وثبت مركزه ولم يتبين من دراسة المصادر التأريخية مايدل على تأييد شعبي لاولئك الامراء وربما كان لسياسة استخدام القوة واعدام الامراء المناوئين اثر في ذلك، غير ان النص السابق يظهر منه ان الذين وقفوا ضد سياسة قلاوون كانوا كثرة من الامراء والجند يقدر عددهم بنحو ثلاثمائة رجل.

وبعد نجاح الصليبيين بطرابلس في الوصول إلى اهدافهم السابقة مع قلاوون تشجع الصليبيون في منطقة عكا (٥١) على مراسلة السلطان قلاوون

---

(٤٩) نفس المصدر السابق: ١/٦٨٦.

(٥٠) المقريزي السلوك: ق٣ج١/٦٨٦.

(٥١) من الجدير بالذكر ان مدينة عكا كانت من اهم معاقل الصليبيين انذاك، نظراً لمناعتها اذ كانت قد استولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٤م واستعادها منهم صلاح الدين الايوبي ١١٨٧م ثم سقطت بأيديهم مرة ثانية سنة ١١٩١م بعد مجيء الحملة الصليبية الثالثة حيث نكل الصليبيون باهلها من المسلمين وذبحوهم خارج اسوار المدينة انظر: دريد عبد القادر نوري، سياسة صلاح الدين الايوبي: ص ٢٩٧-٢٩٨ وص ٣٢٨-٣٣٥، هارولد لامب، شعلة الاسلام: ص ٢١٧.

في محاولة للوصول إلى هدنة للسلام معه كالتي وقعت مع الاسبتارية في طرابلس فوافق عليها قلاوون لمصلحة بدت له معهم .

ففي خامس شهر ربيع الاول من سنة ٦٨٢هـ / ٣ يونية سنة ١٢٨٣م عقدت الهدنة بين السلطان قلاوون وبين حكام الصليبيين بمملكة عكا وصيدا وبلادها وهم اودو بولشيان نائب ملك مملكة بيت المقدس الصليبية (٥٢) . وقد حضر معه كل من مقدم الداوية (٥٣) والاسبتارية وبعض كبار الامراء الصليبيين وأتفقوا على ان تكون الهدنة لمدة عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . وقد ورد نص الاتفاقية في كتاب تاريخ الدول والملوك لابن الفرات (٥٤) . ويمكن أجمال اهم شروطها بما يلي :

١ — ان تكون جميع بلاد المسلمين وما يملكون في مأمن من غدر الصليبيين المتواجدين في الشام او الذين يأتون اليهم من اوربا وقد جاء في نص المعاهدة ما يلي :

« ان جميع ما هو للسلطان ولولده من البلاد ... وجميع العساكر والرعايا ... وجميع التجار والسفار والمترددين في البر والبحر والسهل والجبل في الليل والنهار يكونون آمنين . في حالتي صدورهم وورودهم على أنفسهم واموالهم واولادهم وحريمهم وبضائعهم ... وعلى جميع ما يتعلق بهم ... وانه لاينال بلاد السلطان وولده وحصونهما ولاقلاعهما ولابلادهما ولا عساكرهما ولا جيوشهما ولا عربهما ولا تركمانهما ولا أكرادهما على اختلاف الاجناس والانفار ولا على ما تحويه ايديهم من المواشي والاموال

---

(٥٢) King , The Knights Hospitallers in the Holy land , P.284.

(٥٣) الداوية : Templers منظمة عسكرية دينية تطلق على جماعة فرسان المعبد. وقد اسس هذه الجمعية (Hugh de Payns) سنة ١١١٩م لحماية طريق الحجاج النصاري بين يافا والقدس ثم تحولت بعد ذلك إلى هيئة حربية ، كان لرؤسائها وفرسانها شأن كبير في تاريخ الامارات الصليبية في الشام. اما اعداد هذه الطائفة فغير معروف وقد اشترك من هذه الطائفة حوالي ٣٠٠ في معركة حطين ضد صلاح الدين ولمعرفة المزيد عنها انظر : K . nd . op . Cit , p.p . 1 — 5 , 7 — 33

(٥٤) انظر نص المعاهدة في تاريخ ابن الفرات : ٧/٢٦٢—٢٧٠.

T /٤/م

والغلال وسائر الاشياء منهم [اي من الصليبيين] بغدر ولا بسوء ولا يخشون من جهتهم امراً مكروهاً ولا اغارة ولا تعرضاً ولا أذية ... ». (٥٥)

٢ — وبالمقابل تعهد قلاون ان تكون جميع البلاد العكاوية الداخلة تحت نفوذ الصليبيين آمنة منه ومن ولده ومن عساكرهما « وتكون هذه البلاد المشروحة الداخلة في هذه الهدنة المباركة الخاصة منها وما هو مناصفة مطمينة هي ورعاياها وساير اجناس الناس فيها والقاطنين بها والمترددين اليها على أختلاف اجناسهم وأديانهم والمترددين اليها من جميع بلاد الفرنجية والتجار والسفار ... منها واليها في بر وبحر وليل ونهار ... » (٥٦).

٣ — على الصليبيين ان لايجددو في غير عكا وعثليت وصيدا [المناطق الداخلة في الهدنة] قلعة او برجا ولا يجددوا حصناً قديماً ولا مستجداً (٥٧).

٤ — أذا هرب احد من المسلمين الى الاراضي الصليبية الداخلة في الهدنة وتنصر بارادته ترد جميع ممتلكاته الى السلطان. وان كان لايقصد الدخول في دين النصرانية، يرد الى السلطان قلاوون بما معه بعد ان يعطى الامان وتؤخذ له الشفاعة. وكذلك اذا حضر احد من عكا والمدن الواقعة تحت النفوذ الصليبي بقصد الدخول في دين الاسلام بارأدته يرد الى الصليبيين كل ما معه. وان كان لايقصد الدخول في دين الاسلام، يرد الى الحكام بعكا بشفاعة بعد ان يعطي له الامان.

---

(٥٥) ابن الفرات، التاريخ(بيروت: ١٩٤٢): ٧/٢٦٣-٢٦٤.

(٥٦) نفس المصدر السابق: ٧/٢٦٤-٢٦٥.

(٥٧) جاء خطأً في كتاب دولة بني قلاوون في مصر للدكتور محمد جمال الدين سرور ص ٢٣٤ ان على الفرنجة ان لايجددوا في عكا وعثليت وصيدا حصناً او سورا. وقد أعتمد د. سرور على مخطوط لتاريخ ابن الفرات. والصحيح ماورد اعلاه. لان النسخة المحققة لتاريخ ابن الفرات اوضحت انه يحق لكلا الطرفين التصرف بما يملكون بحرية. وان على الصليبيين ان لا يتجاوزوا حدودهم ويبنون أو يجددوا قلعة او حصنا فيما عدا عكا وعثليت وصيدا التي هي ممتلكاتهم الداخلة في الهدنة. انظر: تاريخ ابن الفرات: ٧/٢٦٥.

٥ ــ أذا وجد في صحبة أحد تجار المسلمين في عكا والبلاد العائدة للصليبيين والداخلة في الهدنة شيء من الممنوعات مثل السلاح ، تعاد الى صاحبها الذي اشتراه منه ويعاد اليه ثمنه ولا تصادر امواله ولا يؤذي بشيء . يعامل التجار الصليبيون بمثل ذلك في البلاد الاسلامية .

٦ ــ «متى اخذت اخيده من الجانبين او قتل قتيل على اي وجه كان ، ردت الاخيذة بعينها ان كانت موجودة او قيمتها ان كانت مفقودة . والقتل يكون العوض عنه بنظيره من جنسه ... وان لم تظهر كانت اليمين على والي المكان المدعي عليه ، وثلث نفر يقع أختيار المدعي عليهم من تلك الولاية ». (٥٨)

٧ ــ ان على الصليبيين بعكا ان يحافظوا على اموال ومتاع المسلمين أذا حدث عطب في سفنهم او أذا انكسرت . وأذا لم يجدوا اصحاب تلك السفن فان عليهم ان يسلموا ما يعثرون عليه لنواب السلطان قلاوون في بلاد الشام . ويجري للصليبيين مثل ذلك في بلاد المسلمين .وكذلك الحال بالنسبة لتجار الطرفين أذا توفي احدهم في غير بلاده فان الطرف الثاني يحافظ على امواله ومتاعه وتسلم بامانة الى الجهة ذات العلاقة .

٨ ــ أذا حاول الصليبيون الموجودون في الغرب الهجوم على بلاد المسلمين من البحر فان على الصليبيين الموجودين بعكا والبلاد الواقعة في الهدنة ان لاينصروهموان يخبروا السلطان قلاوون بخبرهم قبل وصولهم بمدة شهرين . أما أذا كان العدو من جهة البر كالمغول مثلاً ،فان على من يسبق اليه خبر تحركهم الى الشام ان يخبر الطرف الثاني .

٩ ــ على الصليبيين الذين توقع الهدنة معهم ان لايساعدوا لصوص البحر بشيء ، وان لا يسهلوا لهم مهمة بيع المواد المسروقة ،وان ظفروا باحد منهم فيجب القاء القبض عليه وكذلك الحال بالنسبة لامراء المسلمين .

(٥٨) تاريخ ابن الفرات : ٢٦٦/٧ .

١٠ – لايجوز وضع عراقيل امام حركة تجار الطرفين. ويجب ان يجروا على عوايدهم المستمرة وان لايوضع عليهم رسوم جديدة، ويكونون آمنين مطمئنين في حالة سفرهم واقامتهم بما معهم من اموال ومتاع ما عدا المواد الممنوعة.

١١ – من كان من فلاحي البلاد العائدة للسلطان مسلماً كان ام نصرانياً العودة الى ارضه ومن كان من فلاحي الارض التابعة للصليبيين ان يعود الى أرضه مسلماً كان ام نصرانياً. ومن لم يرجع بعد هذا الاعلان يطرد من الجهتين بحيث لايبقى فلاحو بلاد المسلمين في البلاد الصليبية ولا فلاحو البلاد الصليبية في الاراضي الاسلامية. ويكون رجوع الفلاح من الجهة الى الجهة الاخرى بامان.

١٢ – يسمح السلطان قلاوون لكل الحجاج من النصارى بمختلف اجناسهم بزيارة كنيسة الناصرة ويحافظ عليهم وعلى اموالهم، كما يحافظ على بلادهم من كل اعتداء من جنوده او المفسدين كذلك يحافظ الطرف الثاني على ممتلكات المسلمين في بلادهم ويمنعون اي اعتداء يقع على اراضي المسلمين.

١٣ – كل طرف مسؤول عن الشروط السابقة بعينها شرطاً شرطاً وفصلا فصلا، وأذا اخل ببعضها، فقد نقض الهدنة وهو مسؤول عن نقضها ومهلته في ذلك اربعون يوماً من الجهتين وينادى برجوع كل جماعة الى وطنها مطمئنة.

وقد تعهد السلطان قلاوون بالحفاظ على المعاهدة السابقة وتنفيذ نصوصها واقسم على ذلك امام الشهود بقسم طويل جاء في بعضه مايلي: « والله ... وبالله ... وحق القرآن ومن انزله ... انني افي بحفظ هذه الهدنة ... من اولها إلى اخرها... ولا اتأول فيها ولا في شيء منها، ولا استفتي فيها طلباً لنقضها مادام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعثليت... وافين باليمين... عاملين بشروطها... وان نكثت في هذه اليمين فيلزمني الحج إلى بيت الله الحرام ... حاسرا ثلاثين حجة ويلزمني صوم الدهر كله...» (٥٩).

(٥٩) نفس المصدر السابق: ٧/٢٧٠–٢٧١.

كذلك تعهد الامير الصليبي اودوبولشيان – نائب الملك شارل بالبلاد الشامية– ان يحافظ على الهدنة وان لايخل بشروطها وقد جاء في بعض قسمه مايلي:–« والله... وبالله... وحق المسيح... وحق الصليب... وحق الاناجيل الاربعه ... وحق الست مارية ام النور ... وما تلقيته من الآباء والاقساء المعمودية، انني قد اخلصت نيتي في الوفاء للسلطان المنصور... بجميع ماتضمنته هذه الهدنة ...(وان لااتعرض لكافة المسلمين ولبلادهم) باذية ولاضرر ... ماداً الملك المنصور وافياً باليمين.. ومتى خالفتها او نقضتها فاكون بريئاً من ديني... واكون مخالفاً للكنيسة ...» (٦٠).

ويتبين من دراسة نصوص المعاهدة السابقة والحلف عليها ان كلا الطرفين المتهادنين كانا صادقين في مسعاهما وانهما رغبا بكل جدية ان يحل في بلاد الشام فترة من السلام والاطمئنان لتنعم المنطقة برفاهيةاقتصادية وبتقدم مادي يكسب كلا الطرفين الوقت في اعداد العدة للنهوض بالواجب المحتم، طالما لم يتمكنا من الاستمرار به في الفترة التي وقعت فيها الهدنة.

وقد دل التأكيد على التجار والفلاحين في المعاهدة السابقة وورود اكثر من نص بحق التجار مايدل على اهميتهم مادياً وعسكرياً وبالتالي على رغبة كلا الطرفين بتطوير العمليات التجارية والاستفادة منها في مجال كشف احوال الطرف الثاني ومعرفة امكانياته.

كما دل النص الخامس في الاتفاقية السابقة على انه كانت تقوم بين الطرفين– لاعلى المستوى الرسمي– عملية بيع الاسلحة. ومما يدل على ذلك انه في سنة ٦٨٧هـ ورد الخبر إلى السلطان قلاوون ان الامير علم الدين سنجر الشجاعي وزير الديار المصرية باع جملة من الرماح والسلاح للصليبيين.
فاعترف الامير الشجاعي بما فعل وقال: « انا بعته بالغبطة الوافرة والمصلحة الظاهرة فالغبطة انني بعتهم من الرماح والسلاح ماعتق وفسد وقل الانتفاع

(٦٠) نفس المصدر السابق: ٧/٢٧٠ – ٢٧١.

به وبعته بأضعاف قيمته والمصلحة ليعلم الفرنج انا نبيعهم السلاح هواناً بهم واستحقاراً لامرهم وعدم مبالاة بهم» (٦١).

غير ان دفاعه لم يؤخذ به واتهم بانه يحاول اساءة سمعة السلطان قلاوون وعسكره وقيل له « ان الاعداء لايحملون بيع السلاح لهم على ماظننت انت، وانما الذي يشيعونه بينهم وتنقله الاعداء إلى امثالهم ان يقولوا قد احتاج صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية حتى باع سلاحه لاعدائه»(٦٢) لذلك امر السلطان باحتجازه ومصادرة امواله.

وعملية بيع الاسلحة هذه تدل من وجه ثان إلى ان الصليبيين كانوا فعلا قد استغلوا فترة انعقاد الهدنة في عملية تجميع قواهم واعداد عدتهم، وانهم اضطروا إلى شراء الاسلحة المستعملة من المسلمين لان تموين الصليبيين الغربي انخفض بسبب المشاكل الدائرية في اوربا آنذاك(٦٣). او لانهم كانوا يخافون ان يفتضح امرهم اما السلطان قلاوون بان الغرب الصليبي يمدهم بالسلاح فتنتقض الهدنة لان قلاوون كان قد فصل بالمعاهدة السابقة بحكمته في الفقرة الثانية من المعاهدة السابقة بين الصليبيين المتواجدين في الشرق وبين الصليبيين الموجودين في اوربا.

على ايةحال فان الهدنة بين الصليبيين والسلطان قلاوون لم تستمر بسبب المشاكل التي آثارها الصليبيون وقبل التطرق اليها ارى من الضروري الكلام على بعض المؤرخين الذين أساؤا عن غير قصد، ان يظهروا السلطان قلاوون بمظهر الرجل الخداع الماكر الناقض للعهود والمواثيق من دون مبرر انتهازا للفرص من دون الاستناد في ذلك إلى ادلة تأريخية. علماً بان قلاوون كان قد حلف الايمان المغلظة في الحفاظ على المعاهدة السابقة ان حافظ الصليبيون عليها.

(٦١) تاريخ ابن الفرات: ٨/٦٣.

(٦٢) نفس المصدر والمكان السابق، السلوك، ق٣، ج١/٧٤٠.

(٦٣) للاطلاع على ماذكر من ظهور مشاكل في داخل بعض المدن الاوربية في هذه الفترة واثره على ضعف الصليبيين في منطقة الشام: انظر: عاشور، الحركة الصليبية: ٢/١١٧٠-١١٧١.

وقد جاء في بعض تلك المراجع ما يدل على ان قلاوون كان البادىء في نقض الهدنة مع الصليبيين بعد ان تحجج عليهم وعلم فيهم ضعفاً (٦٤). وعلى الرغم من أن نكث العهود كان في تلك الفترة يعتبر جزء من الاعمال الدبلوماسية والسياسية التي يموه بها ضد الاعداء ، غير انه من دراسة بعض النصوص القديمة تبين ان قلاوون لم يكن هو البادىء في نقضها ، بل ان الذين نقضوا الهدنة هم الصليبيون بطرابلس فقد هاجموا قافلة تجارية وقطعوا طرق المواصلات واسروا التجار المسلمين ففي سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٩م ورد الى السلطان قلاوون في مصر كتاب من نائبه في الشام يقول فيه «ان الفرنج بطرابلس نقضوا الهدنه واخذوا جماعة من التجار وغيرهم وصار بايديهم عدة اسرى وكانوا لما ملك السلطان قلعة المرقب قد بعثوا اليه هدية وصالحوه على الا يتركوا عندهم اسيراً ولا يتعرضوا لتاجر ولا يقطعوا الطريق على مسافر ... » (٦٥) . وهذا النص لايستنتج منه مطلقاً ما يدل على ان قلاوون تحجج على الصليبيين بل الذي يبدو منه ان الصليبيين هم الذين نقضوا العهد . فهل يفسر رد الاعتبار واخذ الثار بأنه تحجج ! ؟ .

وهكذا نقض الصليبيون في طرابلس العهد فتجهز قلاوون للحرب ولبس شعار السلطنة وسار بقواته من مصر متوجهاً الى بلاد الشام في عاشر محرم سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م بعد ان كاتب الامراء في الشام بتجهيز العساكر لقتال طرابلس وفي ٢٠ من شهر صفر نزل على طرابلس وحاصرها حصاراً شديداً وامر بضربها بالمجانيق ثم توالى الزحف عليها حتى تمكن الحجازين من احداث عدة ثقوب في اسوارها حتى سقطت بايديهم ونكل بمن فيها من الصليبيين لان البلد فتح عنوة واسر عدد كبير منهم رغم ان متملك جزيرة قبرص الصليبي

---

(٦٤) جاء في كتاب الحركة الصليبية مانصه : « بعد ان اضطربت احوال طرابلس وانقسم اهلها شيعاً... تحجج قلاوون بان اهل طرابلس نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين ... » عاشور. ٢/١١٧٣ ، انظر كذلك : سرور ، دولة ابن قلاوون ٢٣٧ .

(٦٥) المقريزي ، السلوك : ق٣-ج١ : ٧٤٦ ، وانظر : تاريخ ابن الفرات : ٨/٨٠ .

كان قد امدهم باربع سفن حربية محملة بالكثير من العدد والعدة . (٦٦)

وبعد دخول قلاوون لمدينة طرابلس منتصراً امر بهدمها لكي لاتكون ملجئاً للصليبيين في المستقبل يحاولون العودة اليها من جديد أذا ما سنحت لهم فرصة مواتية او اذا وصلهم امداد من الصليبيين في الغرب لانها قريبة من البحر ، ولذلك فان هدمها كان اولى بالنسبة لقلاوون فهدمها ، ثم عمر مدينة مجاورة لها في الداخل بني فيها العديد من الحمامات والمساجد والمدارس كما اجري المياه في دورها بقساطل واحتفل ببنائها (٦٧) .

اما الصليبيون فقد امر بأخراجهم من المدينة وتوزيع ما بقي منهم على القرى المجاورة التابعة لطرابلس والخالية من التحصينات العسكرية ليسلم من أذاهم بعد أن أبقى بيد الاميرة لوكانت اخت الامير بوهمند السابع — الاميرة الشرعية التي كانت سوف تحكم طرابلس — قريتين من قرى المدينة (٦٨) كذلك نصب اميرا صليبياً على منطقة جبيل اكراماً لابيه المقتول حاكم مدينة طرابلس والذي كان قد حضر الى السلطان قلاوون متشفعاً مستسلماً (٦٩) .

وعلى الرغم من ان التنازل للصليبيين ، بعد ذلك الانتصار ، لم يحدث له مثيل في الفترة التاريخية السابقة غير انه يبدو ان السلطان قلاوون قصد من وراءه ترضية خواطر الدول الاوربية المساندة للصليبيين . والحفاظ على مصالحه التجارية التي كانت مرتبطة مع بعض الدول الاوربية (٧٠) . وقد كان لهذه السياسة التي اتبعها قلاوون مع الصليبيين اثر فيما جرى من تطورات في عالم السياسة والدبلوماسية بينه وبين بعض الممالك النصرانية .

---

(٦٦) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة : ٣٢١/٧ ، المقريزي ، السلوك : ق٣ج١/٧٤٧ .
King: OP. cit., P288

(٦٧) انظر : تاريخ ابن الفرات : ٨١/٨ ، السلوك لمعرفة دول الملوك : ق٣ج١/٧٤٧-٧٤٨ .

(٦٨) Stevenson, The crusader in the East, P. 350.

(٦٩) تاريخ ابن الفرات : ٨١/٨ ، السلوك : ق٣ج١/٧٤٨ .

(٧٠) انظر : توفيق اليوزبكي ، تاريخ تجارة مصر البحرية : ص ٨٧ .

فقد اتفق ملك ارغونة وصقلية على مهادنة قلاوون ومساعدته ضد الصليبيين بالشام اذا ماأخلوا بالهدنة الجديدة وحاولوا الاعتداء على المسلمين (٧١).

ولم يكد قلاوون ينتهي من تصفية حسابه مع الصليبيين في منطقة طرابلس ويعود مطمئناً إلى مصر حتى جاءته الاخبار من الشام في شعبان سنة ٦٨٩هـ ان الصليبيين بعكا نقضوا العهد وهجموا على التجار المسلمين وقتلوهم فغضب قلاوون غضباً شديداً وحلف ان ينتقم للتجار المسلمين. وقد حاول عبثاً الصليبيون تهدئة خواطره بأن إدعوا ان الذي قتل التجار المسلمين كانوا من« الفرنج الغرب وانه ليس برضاهم» (٧٢) غير ان السلطان لم يلتفت اليهم وامر بالتجهز للحرب وكتب إلى الامراء في الشام بعمل المجانيق وتجهيز العدد والعدة لحصار عكا. غير انه لم يكمل مهامه ويصل إلى الشام، لان المرض داهمه قبل مغادرته مدينة القاهرة فتوفي في ليلة ٦ ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ نوفمبر سنة ١٢٩٠م فخلفه ابنه السلطان اشرف خليل الذي تمكن من اتمام مشروع ابيه في مقاتلة الصليبيين في الشام فتوجه إلى عكا وحاصرها حصاراً شديداً وتمكن من فتحها نظراً لكفاية جيشه ومعداته العسكرية وبخاصة المجانيق الضخمة التي اشتركت في القتال والتي دكت اسوار المدينة (٧٣).

---

(٧١) Stevenson, op. cit, p. 351,

(٧٢) تاريخ ابن الفرات: ٨/٩٣.

(٧٣) انظر: ابن الفرات: ٨/٩٣؛ السلوك: ق٣ج١/٧٥٣-٧٥٥.
Stevenson, op. cit, p. 352,

قائمة المصادر والمراجع

آ — المصادر القديمة

١ — ابن اياس ، محمد بن احمد (ت : ٩٣ هـ) .
بدائع الزهور في وقائع الدهور (بولاق : ١٣١١هـ) .

٢ — ابن تغرى بردى، جمال الدين ابو المحاسن يوسف (ت : ٨٧٤هـ)
النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة (القاهرة: ١٩٢٩م و ١٩٣٥) .

٣ — ابن خلدون ، عبد الرحمن (ت : ٨٠٨هـ)
العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر المسمى تاريخ ابن خلدون (بولاق : ١٢٨٤هـ) .

٤ — ابو شامة ، شهاب الدين ابو محمد بن عبد الرحمن (ت : ٦٦٥هـ)
الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية (القاهرة : ١٢٨٧هـ) .

٥ — ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت : ٦٣٢هـ)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة : ١٩٦٤) .

٦ — ابن شداد ، عزالدين ابو عبد الله محمد بن علي (ت : ٦٨٤هـ)
الاعلاق الخطيرة بذكر امراء الشام والجزيرة تحقيق سامي الدهان (دمشق : ١٩٥٦) .

٧ — ابن كثير ، عماد الدين ابن ابي الفداء اسماعيل (ت : ٧٧٤هـ)
البداية والنهاية تحقيق د . قسطنطين زريق وزميله (بيروت : ١٩٣٩) .

٨ ــ ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت : ٨٠٧ هـ)
تاريخ ابن الفرات (جـ٧ تحقيق د. قسطنطين زريق) بيروت: ١٩٤٢.

٩ ــ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (ت : ٦٩٧ هـ)
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (القاهرة : ١٩٥٧)

١٠ ــ الحنبلي ، ابن العماد عبد الحي (ت: ١٠٨٩هـ)
شذرات الذهب في أخبار من اذهب.

١١ ــ الذهبي ، الحافظ ابو عبد الله محمد (ت : ٧٤٨)
تأريخ دول الاسلام (القاهرة : ١٩٤٩).

١٢ ــ الكتبي ، محمد بن شاكر
فوات الوفيات والذيل عليها عليها (بيروت : ت)

١٣ ــ المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ)
أ ــ السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق محمد مصطفى زيادة
(القاهرة: ١٩٣٩).
ب ــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (بولاق:
١٢٧٠هـ) .

١٤ ــ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت: ٩١١هـ).
تاريخ الخلفاء امراء المؤمنين (القاهرة: ١٣٥١هـ) .

١٥ ــ ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله(ت: ٦٢٦هـ)
معجم البلدان (القاهرة: ١٣٢٣هـ). وطبعة(بيروت :
١٩٥٧)

١٦ ــ القلقشندي، ابو العباس احمد بن علي (ت: ٨٢١هـ)
صبح الاعشى في صناعة الانشا(القاهرة: ١٩٦٣) .

ب – المراجع الحديثة

١٧ – امين السيد، حكيم
قيام دولة المماليك الثانية(القاهرة: ١٩٦٧).
١٨ – حسن ، علي ابراهيم
تاريخ المماليك البحرية(القاهرة: ١٩٦٧) .
١٩ – لامب، هارولد ،
شعلة الاسلام، ترجمة محمد عبدالله (بغداد: ١٩٦٧).
٢٠ – نوري، دريد عبد القادر،
سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة (بغداد: ١٩٧٦).
٢١ – سليم، محمد زرق.
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي(القاهرة: ١٩٦٢).
٢٢ – سرور، محمد جمال الدين،
دولة بني قلاوون (القاهرة: د ت)
٢٣ – عاشور، سعيد عبد الفتاح،
الحركة الصليبية(القاهرة: ١٩٧١) .
٢٤ – العريني، السيد الباز
المماليك(بيروت : ١٩٦٧).
٢٥ – رانسيمان ستيفن ،
المدينة البيزنطية. ترجمة د. صالح احمد العلي بغداد: ١٩٥٦).
٢٦ – حسن، ابراهيم حسن،
دراسات في تاريخ المماليك البحرية (القاهرة: ١٩٤٨).

٢٧ – فيشر، هربرت
تاريخ اوربا في العصور الوسطى(القاهرة: ١٩٦٩).

٢٨ – اليوزبكي، توفيق
تاريخ تجارة مصر البحرية في عهد المماليك(الموصل: ١٩٧٥).

29 – Encylopaedia of Islam ,Vol,1,2, (London. 1960) .

30– King (E.J.) :
The kinghts Hospitallers in the Holy Land ,London . 1931.

31 – Lane pool (S.) .
A–A History of of Egypt in the middle ages, London .1963.
B– Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem . London, 1898.

33– Stevenson (W.R.) :
The crusaders in the East , canbridge , 1907 .

حول الموقف العثماني من مطامع الأطماع الصهيونية الاستيطانية في فلسطين ١٨٧٦ ١٩٠٨

عماد احمد الجواهري

تطور المصالح الاستعمارية والاطماع الصهيونية في البلاد العثمانية :

شهدت البلاد العثمانية عموماً ومنها بلاد الشام تطورات مهمة خلال القرن التاسع عشر وذلك في اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، وقد كان هذا التطور واضحا في اتساع حجم التجارة وتطور وسائل المواصلات(١) ونمو طبقة الملاكين في المدن وزيادة فعالياتها الاقتصادية والسياسية (٢) . وفي موجة المد الاستعماري الغربي الحديث للسيطرة على العالم اعتبرت الدولة العثمانية التي كانت تعاني من اضطراب عام في مؤسساتها كافة مجالا حيويا للنشاط الاستعماري. وهكذا يمكن تعقب الخطوات الاستعمارية خطوة خطوة وذلك من خلال ابراز اوجه التدخل المختلفة التي رسمتها القوى الاستعمارية والتي كانت في مجملها مشاريع استعمارية متعددة الاوجه واحدة الاهداف ولئن كان استغلال الدول الاستعمارية للاقليات والطوائف الدينية اسلوبا من اساليب نفوذ عجلة الاستعمار وسحقها للشعوب ، فلقد شهدت ولاية سورية العثمانية منذ فترة مبكرة من تاريخها الحديث محاولات القوى الاستعمارية لاستخدام الطائفة اليهودية (٣) ضمن خططها ومشاريعها الاستعمارية فقد

---

(١) ز.ي. هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، ترجمة مصطفى الحسيني ص٦٥–٧٠ ، عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤–١٩١٤ ، (القاهرة ١٩٦٩) ص ٢٧٨–٢٨٦.

(٢) يقول جوستورك : «ان التطورات العامة في القرن التاسع عشر في البلاد العثمانية ادت إلى نشوء طبقة برجوازية مرصوصة البنيان «كذا» وكانت ثروتها تقوم في الغالب على تملك الاراضي ولدرجة اقل على التجارة الخارجية وقد اصبحت تمثل العمود الفقري للنظام السياسي كما قادت فيما بعد النضال السياسي ضد الصهيونية وانصارها ولكن مصلحتها الذاتية املت عليها التصرف بشكل لايمس امتيازاتها» الابعاد الاقتصادية للمقاومة العربية ضد الصهيونية» مجلة مركز الدراسات الفلسطينية عدد ايلول– تشرين اول ١٩٧٧، ص ٥–٣٢. ولغرض البحث انظر ص١١.

(٣) حول نفوس الطائفة اليهودية ينسب د. عبد الوهاب الكيالي ، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث((بيروت ١٩٧٣) ص١٧ ، إلى نائب القنصل البريطاني في القدس ان عدد اليهود في فلسطين(حوالي منتصف القرن التاسع عشر) كان(٩٧٠٠) نسمة. ويذكر فلاديمير لوتسكي ، في ص ١٥٨ ، من كتابه، تاريخ الاقطار العربية الحديث ان عدد اليهود كان (١١) الف نسمة وذلك حوالي منتصف القرن التاسع عشر ايضاً وان الكثير منهم اقاموا لاغراض دينية. اما يوسف الحكيم فيقول في ص ١٩٩ من كتابه سورية في العهد العثماني بان عدد اليهود كان (٢٠) الف نسمة منهم خمسة او ستة الاف في مدينة القدس وذلك في حوالي الثلث الاخير من القرن التاسع عشر .

ارتبطت فكرة نابليون لانشاء دولة يهودية في فلسطين (١) بخططه لاقامة امبراطورية استعمارية فرنسية في الشرق اواخر القرن الثامن عشر .
كما ارتبطت فكرة انشاء ارسالية دينية في القدس عام ١٨٤٩ (٢) من لدن الروس بمحاولات روسيا الاستعمارية في البلقان على حين اتضحت الاطماع الاستعمارية البريطانية في المشرق العربي عن طريق تشجيعها لخطط الاستعمار اليهودي في فلسطين(٣)ويذكر ان عددا من رجالات الاستعمار البريطاني كانوا قد وضعوا عام ١٨٣٨ جملة مشاريع لاسكان اليهود في فلسطين وانشاء دوله يهودية تحت الحماية البريطانية فحظيت تلك الخطط بتأييد بالمرستون (٤) رئيس الحكومة البريطانية بعد ان راى فيها ضمانا لامن المواصلات الامبراطورية . (٥) ومن جهة اخرى فقد كتب بالمرستون الى قناصل بريطانية كافة في غرب آسيا طالبا منهم تأييد حماية اليهود (٦) الذين زعم ان انكلترا ستسعى من اجل تحقيق

(١) يروى بأن نابليون اصدر عام ١٧٩٩ بياناً رسمياً دعا فيه يهود وآسيا وافريقيا ان يهرعوا تحت رايته إلى دخول القدس واعادة بناء الهيكل: انظر عمر عبد العزيز عمر ، بريطانيا وتصريح بلفور ، دراسة في نشأة القضية الفلسطينية، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ١٩٧٣ ص ٢٣٦ – ٢٨٨ ولغرض البحث انظر ص ٢٥٩، يوسف هيكل، فلسطين قبل وبعد، ص ٨٤–٨٥.

(٢) في عام ١٨٤٣ عينت روسيا بازيلي قنصلا عاما في سورية بما فيها فلسطين ومنح صلاحيات جميع الوكلاء القنصليين في البلاد وكانت التعليمات التي لديه تقضي بانشاء علاقات وطيدة مع السلطات الكنسية كافة في جميع انحاء سورية وفلسطين، كما زود بتعليمات من اجل خدمة الحجاج الروس . ويقول القنصل البريطاني في القدس ان هولاء الحجاج الذين معظمهم من المحاربين القدماء كانوا يتحدثون عن اليوم الذي ستصبح فيه فلسطين تحت السيطرة الروسية. انظر :
Derek Hopwood,the Rassian Presence In Syria and Palestine 1843—1914.
Church and Politics In The Near East, Claredon press, Oxford 1969,pp.15-16.

(٣) لوتسكي: المصدر السابق، ص ٤٤، ١٥٨.

(٤) Viscount palmerstone راس الحكومة البريطانية عام ١٨٥٥ وكذلك عام ١٨٥٩. توفي في ١٨ اكتوبر عام ١٨٦٥.

(٥) لوتسكي، المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٦) انظر المكاتبات بين السفارة البريطانية في الاستانة والباب العالي حول رعاية بريطانيا لليهود في فلسطين: د. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨–١٩١٨ (بيروت ١٩٧٣) ص٢٥.

عودتهم الى فلسطين ليكونوا عونا للانكليز على محمد علي باشا الذى بات خطره يهدد المصالح الامبراطورية. (١)

وبالرغم من استجابة بعض كبار المتمولين اليهود وتأيدهم لخطط بالمرستون الا ان انقسامات خطيرة نشبت من اليهود الغربيين والصهيونيين السياسيين وذلك حول الافاق والابعاد النهائية لعملية الاستيطان اليهودي في فلسطين .

ويفهم ان اولئك اليهود الغربيين من اللاصهيونيين او المعادين للصهيونية اعاقوا الى حدما تطور الفكر الصهيوني وذلك خلال القرن التاسع عشر ففي هذا المجال يقول بن هالبرن Ben Halpern

ان تاثير اليهود اللاصهيونيين واليهود المعادين للصهيونية واتجاهاتهم يجب ان تكون مفهومة في التحليل التاريخي الاجتماعي للفكرة الصهيونية السياسية (٢) .

ويقال ان مونتفيورى(٣)وروتشيد(٤) كانا يحبذان الاستيطان اليهودى في فلسطين والبلاد الاخرى التي لاتوجد فيها روح معاداة السامية بينما كان الصهاينة

---

(١) د. عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص ٢٦٢ ويقول ابراهيم ابو لغد، تهويد فلسطين ص٤٥ بأن بالمرستون تاثر بنفوذ شافتزبري Shaftesbury (١٨٠١–١٨٨٥) وهو رجل مال يهودي شغل منصب مندوب هيئة الرقابة ورئيس اللجنة الصحية في القرم. ساند الاصلاح الاجتماعي واسهم في النشاط الخيري والديني.

(٢) The Idea of the Jewish State , London , Oxord University Press , 1961 p . 55 ,

(٣) مونتفيوري، كلود جوزف جولد سمث(١٨٥٨–١٩٣٨) وهو زعيم طائفة من يهود بريطانيا« اليهود المتحررين» ومؤلف عدد من الكتب. اسس المجلة اليهودية عام ١٨٨٨ وترأس تحريرها ومولها حتى عام ١٩٠٨. رئيس الجمعية اليهودية الانكليزية ١٨٩٥–١٩٢٠ عارض الصهيونية وهاجم وعد بلفور. انظر الملحق بالاسماء والمؤسسات في يوميات هرتزل، ص٥٤٢.

(٤). البارون ادمون دي روتشيلد(١٨٤٥–١٩٣٤). رئيس القسم المصرفي الفرنسي في عائلة روتشيلد. تبنى اوائل المستعمرات اليهودية في فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنازل عام ١٩٠٠ عن ادارة المستعمرات إلى جمعية الاستعمار اليهودي. وفي عام ١٩٢٥ اسس « جمعية الاستعمار الفلسطيني اليهودي» لتشرف على المستعمرات. انتخب عام ١٩٢٩ رئيساً فخرياً للوكالة اليهودية. انظر الملحق بالاسماء والمؤسسات في يوميات هرتزل، ص٥٥١

يعتبرون فلسفة الاستيطان التي لاتودى إلى قيام دولة صهيونية امرا غير مقبول(١) يمكن القول ان ذلك الخلاف يعود في الواقع إلى ان الصهاينة السياسيين من البرجوازية الصناعية التي ساهمت في تقديم الخطط الاستعمارية المذكورة آنفاً . لم تكن قد استطاعت بعد صياغة وبلورة الصهيونية لتكون ايديولوجية قادرة على استقطاب اليهود كافة باعتبارهم الوسيلة التي تكون الصهيونية بدونها مشروعاً لاقيمة له في الواقع (٢) . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان صيغة الترابط العضوى بين الايديولوجية الصهيونية والايديولوجية الاستعمارية الحديثة لم تتكامل حتى وقت مبكر من القرن العشرين (٣) بعد احتضان دعوة هرتزل من الصهيونيين العمليين (٤) وما اعقب ذلك من انحسار دور المدرسة الصهيونية الروحية التي كانت تطالب بمركز روحي لليهود في فلسطين (٥) ان النتيجة المنطقية لهذا التطور تعني ان المدرسة الصهيونية العملية ستلتزم بدفع الهجرة اليهودية ذات الافق الايديولوجي المحدد باتجاه صهيوني يرتبط (٦) بمقاصد

(١) ابراهيم ابولغد ، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٢) ويقال انه حتى عام ١٩١٤ كان من بين الثلاثة عشر مليون يهودي في العالم (١٣٠,٠٠٠) صهيوني فقط. انظر ألن تايلر، تاريخ الحركة الصهيونية، تحليل للدبلوماسية الصهيونية ١٨٩٧-١٩٤٧، ترجمة بسام ابو غزالة، ص٢٠.

(٣) انظر في هذا الموضوع شفيق الرشيدات، فلسطين تاريخاً وعبرة ومصيراً، ص٣٥-٤٤، ٤٥.

(٤) كانت وجهة نظر الصهيونيين العمليين تتلخص بضرورة المضي في المشاريع الاستعمارية الصهيونية اعتماداً على اساس سياسة الواقع« ان خلاص اسرائيل لن يتم عن طريق الدبلوماسية، وانما عن طريق الانجازات العملية. تاج السر احمد حران، فلسطين والتحديات الصهيونية، وسائل العمل الصهيوني ١٨٩٧- ١٩١٧، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، المصدر السابق، ص ٤٥٣- ٤٨٤. ولغرض البحث انظر: ص ٤٧٢- ٤٧٤.

(٥) د. خيرية قاسمية، المصدر السابق، ص ٢٠.

(٦) على الرغم من الادلة القاطعة نفى وايزمان، ان تكون هناك علاقة بين مقاصد دول اوربا الاستعمارية وبين مسألة انشاء الوطن القومي الصهيوني وقال في هذا المعنى: « كثيراً مانسمع القول يتردد بأن وعد بلفور انما تم... لاسباب استعمارية او لما يشبهها من اسباب مبتذلة وكل ذلك كذب محض... ويرى جورج انطونيوس بأن قول وايزمان لايتفق والحقائق بل ولاحتى مع الرواية الموجزة الواردة في التقرير الذي نشرته سنة ١٩٢١ الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية، فقد جاء في ذلك التقرير ان تقدير القيمة الستراتيجية لفلسطين في نظر الامبراطورية البريطانية هو الذي كان له الوزن الراجح لدى من سعوا لاستصدار وعد بلفور. للمعلومات الاضافية انظر: كتابه الموسوم: يقظة العرب، ترجمة د. ناصر الدين اسد ود. احسان عباس، دار العلم للملايين، ط٤(بيروت ١٩٧٤)، ص ٣٧٠-٣٧٤

الاستعمار واهدافه التوسعية جاعلا من اسرائيل في النهاية ظاهرة استعمارية خطيرة (١) .

تعثر المساعي الصهيونية

كان المؤتمر الصهيوني الاول (١٨٩٧) قد تبنى دعوة هرتزل في برنامج محدد اطلق عليه برنامج بال وقد جاء في البرنامج بان هدف الصهيونيين هو انشاء وطن لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام. ولتحقيق هذا الهدف يرى المؤتمر تطوير الاستيطان في فلسطين وتنظيم ودمج اليهودية على اسس مناسبة وتعزيز الشعور والوعي القوميين لدى اليهود واتخاذ خطوات تمهيدية من اجل الحصول على موافقة حكومية عند الضرورة لتحقيق اهداف الصهيونية(٢).

ورغم نجاح العناصر الصهيونية في تذليل العقبات الناجمة عن معارضة اليهود غير المؤيدين للصهيونية فقد واجهتهم جملة عقبات ومصاعب عاقت برامجهم بشأن الاستيطان والهجرة الصهيونية وتشكيل الدولة اليهودية .

١ — ان ظروف ونتائج التطور الرأسمالي في البلاد العثمانية ومنها بلاد الشام رغم بطئها النسبي ساهمت في خلق طبقة برجوازية ذات فكر واهداف قومية تقف على وجه التأكيد ضد الاطماع والمساعي الصهيونية في فلسطين (٣) .

٢ — لم يكن بوسع الصهاينة ضمان موافقة دولية جماعية لمشروع الدولة الصهيونية بسبب صعوبة التوفيق بين مصالح الدول الاستعمارية يومذاك (٤).

٣ — ان القوانين العثمانية مازالت تقف حجر عثرة بوجه العملتين الرئيسيتين اللازمتين لتنفيذ اي مخطط صهيوني وهما :

---

(١) انظر من اجل ذلك :—

The Palestine Question, Seminar of Arab Jurists on Palestine Algiens, 22 — 27 July, 1967 Translated from French by Edward Rizk, The Institute for Palestine Studies, Beirut 1968, PP . 35 — 36.

(٢) انظر حران، المصدر السابق، ص ٤٥٨

(٣) انظر الهامش رقم (٢) ص (٧٣).

(٤) انظر : يوميات هرتزل، اعداد انيس صايغ ترجمة هلدا شعبان صايغ، سلسلة كتب فلسطينية — ١٠ مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية(بيروت ١٩٦٨)— الفصل الاول المرسوم هرتزل والاستعمار ص ١٧—٣٣٢.

آ— انتقال الاراضي إلى الاجانب في البلاد العثمانية .

ب — اقامة الاجانب في الدولة العثمانية .

والواقع ان الدولة العثمانية لم تقر اجراءات قانونية تخص قبول انتقال الاراضي إلى الاجانب حتى صدور نظام عام ١٨٦٧ الذي سمح لهم بتملك الاراضي في معظم أنحاء الدولة العثمانية (١) وفي الوقت نفسه حظرت القوانين العثمانية ١٨٥٦ و ١٨٨٢ و ١٨٩٣ و ١٨٩٩ انتقال الاراضي إلى اليهود بشكل خاص (٢) ، اما فيما يتعلق باقامه الاجانب في البلاد العثمانية فان السلطات العثمانية فرضت قيودا مهمة على دخول اليهود إلى فلسطين عام ١٨٨٨ كما انها قصرت دخولهم إلى فلسطين على اغراض الحج وحددت اقامتهم بثلاثة اشهر . وا صدرت الدولة العثمانية قانون الجواز الاحمر خاصاً باليهود الذين يدخلون فلسطين لغرض السياحة او الزيارة . (٣)

لقد وقفت الدولة العثمانية ضد المحاولات والجهود الصهيونية الرامية إلى استعمار فلسطين وان هذا الموقف يتجلى بشكل واضح في الجانب التشريعي الذي سبقت الاشارة اليه وفي الموقف الشخصي للسلطان عبد الحميد الذي انعكس بالضرورة على الموقف الرسمي للدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ايضا

نمط الحكم العثماني في فلسطين :—

كان السلطان والجهاز الادارى المؤلف من طبقة الموظفين الاداريين المدنيين والعسكريين يمثلون الطبقة المستغلة في المجتمع العثماني : وفي فلسطين كان كان الشعب العربي ينوء تحت وطأة الاستغلال الذي مارسته ضده تلك الطبقة ممثلة بملتزمي الضرائب والفرسان الاقطاعيين .

---

(١) عبد العزيز محمد عوض، المصدر السابق، ص ٢٣٤. وجدير بالذكر ان القانون منع الاجانب من تملك الاراضي في الحجاز فقط.

(٢) د. خيرية قلسمية، المصدر السابق، ص ٢٤—٢٥، ناجي علوش، الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢—١٩٤٨، ص٧٧ .

(٣) جاسم محمد حسن، العراق في العهد الحميدي، اطروحة ماجستير غير منشورة بغداد ١٩٧٥ ص٦٧.

ف « في ظل النظام العثماني ساد فلسطين النظام الاقطاعي فاحتكرت حفنه من عائلات فلسطين ملكية مساحات واسعة من الاراضي واستغلت طبقة الفلاحين المتخلفين . ومن الناحية السياسية كانت هذة العائلات متحالفة مع الطبقة العثمانية الحاكمة عبر علاقة المنافع المتبادلة والمصالح المشتركة وبالتالي فقد سيطرت تلك العائلات — طبقة الوجهاء — على المناصب الحكومية والدينية الهامة » (١) .

واذا كان لهذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية مظاهرها السياسية حينما ضعف النظام الاقطاعي العثماني — فقد تجلت في ضعف سلطة الدولة على الولايات وانتشار الامارات الاقطاعية على امتداد الرقعة الجغرافية للدولة العثمانية، على ان النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد محاولات الدولة العثمانية لاستعادة هيمنتها وتعزيز سلطتها على الولايات التابعة لها وتصفية الامارات الاقطاعية كما عمدت إلى الغاء اساليب الجباية القديمة (٢) وهي الاساليب التي تمكن الاشخاص القائمين بعملية الجباية من تكريس وضع يتيح لهم السيطرة على الارض والانسان على حساب ايرادات الدولة. (٣) وعلى الرغم من ان الفضل في ذلك يرجع إلى تشريع الدولة لقوانين الاراضي والطابو ١٨٥٨، ١٨٥٩ ونظام الولايات ١٨٦٤ فان الابعاد الاجتماعية للقوانين الاخيرة بشكل خاص ارادت من ناحية اخرى اقرار صيغة التصرف بالارض على اساس الواقع القائم فعلا مما يجعلها ذات اثار اجتماعية بعيدة المدى، غير ان اخفاق الدولة العثمانية الذريع في تطبيق قوانين الاراضي لمصلحة المتصرفين الفعليين بالاراضي

(١) د. عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ط١، (بيروت ١٩٧٠) ص ٤٤—٤٥.

(٢) وهي الاساليب القائمة على طريقة الالتزام.

(٣) هرشلاغ، المصدر السابق، ص ٥٤.